المفارقة في "كتاب النمر والثعلب" لسهل بن هارون

أحمد حمد النعيمي

المقدمة:

عند الحديث عن القصة في الحياة العربية القديمة، فإنه يسهل على الباحث أن يلاحظ أنها عاشت مع كل أشكال الإبداع والنقد، إذ لكل قصيدة قصة، وفي مرحلة لاحقة صار الناقد يروي قصة ليؤكد على فكرة نقدية، أو يروي قصة بيت من الشعر ليؤكد على صحة نسبته إلى صاحبه، أو نفي تلك النسبة عنه.

ولا يكاد يصل الباحث العصر العباسي الأول حتى يجد ألوانا من القصص المدونة، التي اتخذت أشكالا فنية مستقرة، وليس المقصود بذلك الوقوف عند حدود المقامات والمنامات كأقرب الأشكال الفنية إلى ما يسمى اليوم بـ: "القصة القصيرة"، ولكن العصر العباسي عرف بموازاة ذلك شكلا سرديا أقرب ما يكون إلى ما نسميه اليوم بـ: "الرواية" إن لم يكن رواية بالفعل، و**كتاب النمر والثعلب** لسهل بن هارون واحد من تلك الأعمال. وقد اختارت هذه الدراسة عنصر المفارقة لتطبيقه على النص السردي، موضوع البحث، ولكن قبل ذلك تحسن الإشارة إلى بعض المسائل.

لعله من الواضح "أن تاريخ الأدب لأيّ أمة من الأمم، إما أن يلتزم فيه المؤرخ المعنى العام لكلمة أدب، فيؤرخ للحياة العقلية والشعورية في الأمة تاريخا عاما، وإما أن يلتزم المعنى الخاص فيؤرخ للشعراء والكتاب تاريخا خاصا بالأدب ونشأته وتطوره وأهم ملامحه"[1].

وفي الأحوال كلها فإن "الأدب يؤدي بوسائل الفن مهاما ذات صلة بعلم الإنسان، وعلم المجتمع. إنه لا يعيش ويتغذى بالأفكار الجمالية وحدها، بل بأفكار عصره كلها. وبالتالي علينا ألا ندرس

1- شوقي ضيف، **العصر الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، ط 8 ، 1977م، ص 11.

علم الأدب على مستوى علم الجمال المفهوم فهما ضيقا، بل على ضوء الإبداع الفني في علاقاته الخاصة المعقدة بأوجه حياة المجتمع السياسية والفلسفية والأخلاقية"[2].

وعند دراسة "المفارقة" في **كتاب النمر والثعلب** لسهل بن هارون، سوف نجد أن عناصر هذه المفارقة واضحة في هذا النص السردي الطويل نسبيا، وتتمثل العناصر العامة لهذه المفارقة، كما يراها الباحثون المحدثون بالمرسل والمستقبل والرسالة " فالمرسل هو صانع المفارقة، والمستقبل متلق واع وحذر يعيد إنتاج الرسالة، والرسالة هي البنية المفارقة التي تخضع لإعادة تفسير"[3]. وما تسعى إليه هذه الدراسة هو الفهم العميق لهذه العناصر، واستنباطها من النص، موضوع الدراسة، استنباطا مباشرا، وقياس مدى تأثيرها عليه، وكيفية أدائها للمقصود منها.

الكتاب والكاتب:

قبل إجراء الدراسة التطبيقية لعنصر المفارقة على **كتاب النمر والثعلب** لسهل بن هارون يحسن الحديث عن هذا العمل الإبداعي بوصفه من الأعمال السردية المتميزة التي عرفها العصر العباسي، إذ على الرغم من أن الباحثين يضعونه تحت باب "قصص الحيوان"، فإنه يختلف عن قصص **كليلة ودمنة** التي ترجمها ابن المقفع في أمرين أساسيين، أولهما: أن **كتاب النمر والثعلب** من إبداع صاحبه، وليس كتابا مترجما، أو منقولا كما هو الحال في **كليلة ودمنة**، وثانيهما: أن الكتاب اتخذ الشكل الروائي من خلال سرده لقصة مكتملة وطويلة نسبيا، يجدها الباحث متوافرة على أغلب التقنيات الروائية المعروفة في زماننا، ولم يتخذ شكل القصص القصيرة.

وإضافة إلى ذلك فإن هذه القصة أو الرواية، تتميز "باعتمادها على الحوار مما جعل بعض الباحثين ينبهون إلى ما تحتويه من إمكانية درامية ـ مسرحية ـ حقيقية، ذات موضوع وأهداف مسقطة على الحياة السياسية في عصر الكاتب، وعلى القصر والولاة في ذلك العصر. كما تتميز القصة بتكامل الشخصيات، فلكل شخصية ميزات جسمية ونفسية وخلقية تميزها عن سواها. وقد أحكم المؤلف عناصر الصراع، ووفر لقصته عناصر التشويق، والعمق، والصراع المتصاعد، والتخطيط السليم القادر على إيصال أهداف المؤلف، وأهداف النص الفلسفية والأخلاقية"[4].

2- أ. س. بوشمين، **الأدب والعلوم الإنسانية**، ترجمة: يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1986م، ص 10.

3- ناصر شبانة، **المفارقة في الشعر العربي الحديث**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002م، ص 52.

4- محمود عبد الرحيم صالح، **فنون النثر في الأدب العباسي**، وزارة الثقافة، عمان، 1994م، ص 154.

أما سهل بن هارون مؤلف هذا العمل الإبداعي، فهو "سهل بن هارون بن راهبون، ويكنى أبا عمرو الدستميساني من أهل نيسابور، كاتب بليغ حكيم"[5]، على الأرجح أنه توفي بحدود سنة 215هـ ـ 830م، وعلى الرغم من أنه ألف عدة كتب، فلم يصلنا منها سوى **كتاب النمر والثعلب**. وهو فارسي الأصل أقام في البصرة، ثم انتقل إلى بغداد، فقرّبه يحيى البرمكي وزير الرشيد منه، وألحقه بالدواوين، حتى إذا أسس الرشيد دار الحكمة عيّن سهل بن هارون فيها للإشراف على بعض الكتب، وبعض ما كان يترجم من الآداب الأجنبية[6].

القراءة التطبيقية لأشكال المفارقة في النص:

عند الحديث عن **كتاب النمر والثعلب** الذي تقف هذه الدراسة عليه، تجدر الإشارة أولًا إلى أنه يعد أقدم نص قصصي عربي يقترب من المفهوم الحديث لفن القص، فمنذ أن عثر عبد القادر المهيري على هذا الكتاب ـ وهو الأثر الوحيد المتبقي لسهل بن هارون كما أسلفنا ـ ثم حققه وقدّم له وترجمه إلى الفرنسية، وأصدره في كتاب من منشورات الجامعة التونسية، وهو يجد العناية المتزايدة من الأكاديميين والدارسين والباحثين، فكان الدكتور شوقي ضيف من أوائل الذين اهتموا به ودرسوه.

ملخص القصة:

يسرد الكتاب قصة تدور أحداثها حول ثلاث شخصيات رئيسية هي: الثعلب مرزوق ويكنى أبا الصباح، والذئب مكابر ويكنى أبا الفراء، والنمر المظفر بن منصور، فالثعلب الذي تحول زوجته بينه وبين تنفيذ نصيحة صديقه طارق المكنى بأبي المغلس لترك الوادي قبل أن يجرفهما السيل يجد نفسه بعد مجيء السيل مقذوفا إلى جزيرة نائية، ولا تتمكن زوجته من النجاة، فتقضي غرقا، وكانت الزوجة قد رفضت الرحيل من الوادي لشكها بأن نصيحة الرحيل جاءت من الحسد والغيرة، ذلك أن طارقا، حسب ظنها، كان يحسدها وزوجها على جمال المكان الذي يعيشان به.

وفي تلك الجزيرة النائية يتعرف الثعلب الناجي من الغرق، إلى الذئب مكابر، ثم سرعان ما يعلن الذئب استغرابه من سبب مجيء الثعلب إلى هذه الجزيرة، وهي على هذا الحال من الفقر، فيسأله: "ما أوقفك أيها الثعلب بهذه الجزيرة وليس فيها أكل؟ فقص عليه الثعلب قصته"[7].

5- ينظر: سهل بن هارون، **الموسوعة العربية على شبكة الإنترنت**، المجلد الحادي عشر، الحضارة العربية، http://www.arab-ency.com

6- ينظر: شوقي ضيف، **العصر العباسي الأول**، دار المعارف ، القاهرة، ط2، 1972م، ص 526 – 540.

7- سهل بن هارون، **كتاب النمر والثعلب**، تحقيق عبد القادر المهيري، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1973م، ص 12.

ومن خلال الحوار بين الذئب والثعلب، يكتشف الثعلب أن سبب فقر سكان الجزيرة هو سيطرة النمر على خيراتها، واستحواذه على مقدراتها، وفي ذلك يقول الذئب: "هنا نمر يقال له المظفر بن منصور قد تملك على هذه الجزيرة وغلب عليها، وهو من شراسته وبخله وضيق خلقه على ما قد عرفت من صفة النمور"[8].

وهنا يستخدم الثعلب دهاءه، فينصح الذئب بأن يذهب إلى النمر، ويقدم له الولاء والطاعة طمعا في أن يمنحه النمر ولاية على ناحية من نواحي مملكته، فينفذ الذئب النصيحة بعد تردد، ويذهب للنمر يستجديه الولاية، ويقدم له الوعود بأن يرسل له الجزء الأكبر من كل غنيمة يصيبها، فيصدقه النمر ويمنحه الولاية.

غير أن الذئب يستحوذ على تلك الناحية ويرفض إرسال الهدايا والغنائم إلى النمر، وهو الأمر الذي يضطر النمر إلى تحذير الذئب برسائل مكتوبة كان يبعث بها إليه، غير أن الذئب يرفض الاستجابة وتتسع دائرة الخلاف حتى تصل إلى الحرب، وهنا تبدأ المفارقات بالظهور، حيث ينتصر الذئب في معركتين، ولا يتمكن النمر من هزيمته إلا بعد أن يقود جيشا ويواجهه بنفسه.

يعد الكتاب نصا أدبيا ثريا بالمفارقات، وخاصة ما تعلق منها بالمفارقة اللفظية، و"مفارقة الموقف بتشعباتها المختلفة مثل: المفارقة الدرامية، ومفارقة خداع النفس، ومفارقة الورطة"[9]. وبهذا المعنى فإن مفارقة الموقف متصلة اتصالا مباشرا ببنية السرد في الكتاب موضوع الدراسة. وفي ما يلي تفصيل الحديث في أنواع المفارقة المستخدمة في النص.

المفارقة اللفظية:

من التعريفات البارزة للمفارقة أنها "الاستعمال الفني لمعاني الكلمات على عكس ما تعنيه في العادة"[10]، وقد لاحظت هذه الدراسة أن المفارقة اللفظية في **كتاب النمر والثعلب** ـ كغيرها من المفارقات ـ كانت وسيلةً من وسائل الكاتب في منح نصه عمقا وقوة من ناحيتي الشكل والمضمون، حيث "تتفق الدراسات على أن المفارقة اللفظية نمط كلامي، أو طريقة من طرائق التعبير يكون المعنى المقصود فيها مناقضا أو مخالفا للمعنى الظاهر"[11]. ومثال هذه المفارقة ما أسبغه الذئب على النمر ـ حين وقف بين

8- سهل بن هارون، **كتاب النمر والثعلب**، ص 13.

9- خالد سليمان، **المفارقة والأدب**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1999م، ص 26.

10- انظر: Collins York, *Concise Dictionary*, 2000, New impression, Beirut, P. 498.

11- خالد سليمان، **المفارقة والأدب**، ص37.

يديه طالبًا الولاية ـ من صفات يعلم علم اليقين أنها ليست فيه، فهو يعرف أن النمر شرس وبخيل وضيق الخلق، ومع ذلك فقد وصفه بـ: "عظيم المؤن، رحب العناء، جزل العطاء ..."[12].

ومن أمثلة المفارقة اللفظية ما ورد في النص من شعر قرأه طارق على مسمع صديقه الثعلب المكنى أبا الصباح، حينما رفض الثعلب نصيحة طارق بترك الوادي، وامتثل لأمر زوجته بالبقاء، على الرغم من أن كل المؤشرات كانت تدل على أن السيل قادم لا محالة. وفي ذلك يقول طارق: لا تحملك زوجتك بلجاجها على أمر فيه عطبك، وأعرف ذلك مما يقول طفيل الغنوي شعرا:

إن النساء كأشجار نبتن معا منهن مر وبعض المر مأكول
إن النساء متى ينهين عن خلق فإنه واجب لا بد مفعول[13]

لقد تمثلت المفارقة اللفظية هنا بكلمتي "مر" و "مأكول"، فالمر لا يؤكل، وعلى الرغم من ذلك قد يجد الإنسان نفسه مضطرا لأكله أو التعايش معه لسبب أو لآخر، كأن يكون هذا المر دواءً، أو يكون زوجة عنيدة، وكثيرة الشك، وحادة الطباع كزوجة الثعلب.

كما تمثلت المفارقة اللفظية في "النهي" و"الوجوب"، فمن ابتلي بزوجة كزوجة الثعلب من الأفضل له أن يفعل نقيض ما توصيه به وما تراه أو تقرره، لأنها لا تنطلق في رؤاها وقراراتها من حكمة وعقل واتزان، بل من شك دائم، وسوء تقدير للعواقب. ولم يجد طارق أفضل من المفارقة اللفظية ليحث صديقه من خلالها على مخالفة رأي زوجته، واتقاء الخطر القادم والداهم.

لا تقف حدود المفارقة اللفظية عند تلك الكلمات التي تنطوي على معاني مناقضة لمعانيها الحرفية، ولكنها قد تتعدى هذه الحدود إلى الوضع اللغوي الذي يناقض معناه الظاهر[14]. ولعل المفارقة اللفظية الأبرز في هذا الاتجاه هي تلك التي وردت على لسان الثعلب حين كان يحاول إقناع الذئب بالتوجه إلى النمر وطلب الولاية منه على ناحية من نواحي مملكته، حيث قال: "قد يركب الصعب من لا ذلول له"[15]، فمن المعروف أن "الذلول" من أسماء الناقة، وعادة ما يؤتى بهذه المفارقة اللفظية للقول: إن من يريد الوصول إلى هدف ما، لا بد أن يكون مؤهلاً له، ويملك مقومات الوصول. غير أن الثعلب أتى بهذه

12- سهل بن هارون، **كتاب النمر والثعلب**، ص 17.

13- المصدر السابق، ص 10.

14- Wikipedia, the free encyclopedia, Irony, http://en.wikipedia.org/wiki/Irony

15- سهل بن هارون، **كتاب النمر والثعلب**، ص 15.

المفارقة للإشارة إلى أن لكل قاعدة استثناء، ولكي يشجع الذئب على الذهاب لمقابلة النمر وطلب الولاية، فقد يساعده الحظ وينجح. وكان للثعلب ما أراد، فقد شجعت هذه المفارقة اللفظية الذئب، ودفعته للتوجه إلى مقابلة النمر واستجداء الولاية. وقد شاءت الأقدار للذئب أن ينجح! وكان من نتائج هذا النجاح أن عين الذئب الثعلب وزيراً ومستشارا له.

ومن المفارقات اللفظية ـ كذلك ـ الأوصاف التي أسبغها الثعلب على النمر أثناء حديث له مع الذئب، فقد وصف النمر بأنه "يأمر بالقتل وهو يضحك، ويستأصل شأفة القوم وهو يمزح، يخلط الجد بالهزل، ويتجاوز في العقوبة قدر الذنب"[16]، وبطبيعة الحال فإن القتل نقيض الضحك، واستئصال الشأفة نقيض المزاح، والجد نقيض الهزل، ولكن الثعلب وجد في هذه المفارقات اللفظية ما يمكنه من رسم صورة مناسبة للنمر، وتشخيص طبعه الشرس.

بهذا المعنى تكون المفارقة اللفظية وسيلة من وسائل النص في تحقيق أهدافه سواء أكانت أهدافا متعلقة بمضامينه الإنسانية والاجتماعية والفكرية والقيمية، أم كانت أهدافا تقنية متعلقة بجماليات الأسلوب ووسائل النص الفنية.

مفارقة الموقف وتشعباتها:

أما عن مفارقة الموقف فلها ـ كما أسلفت هذه الدراسة ـ تشعبات كثيرة، من أبرزها: المفارقة الدرامية، ومفارقة خداع النفس، ومفارقة الورطة، وقد استحوذت مفارقة الموقف بتشعباتها على جزء كبير من الكتاب بشكل واضح، فالأحداث ـ في أغلبها ـ صيغت على نحو مفارق، وذلك ابتداءً من إطاعة الثعلب لزوجته وبقائه في الوادي حتى اللحظة التي اجتاحهما فيها السيل، مرورا بوثوق النمر بالذئب، وما تلا ذلك من أحداث.

إن المفارقة في موقف معين ما هي إلا مظهر من مظاهر الموقف نفسه إذا كان من طبيعته الإثارة والغرابة[17]. وكثيرا ما تحتاج المفارقة وخاصة مفارقة الموقف أو السياق إلى كد ذهن، وتأمل عميق للوصول إلى التعارض، وكشف دلالات هذا التعارض بين المعنى الظاهر والمعنى الخفي الغائص في أعماق النص وفضاءاته البعيدة، كما أن للمفارقة وظيفة مهمة في الأدب بشكل عام ، فهي تتجاوز الفطنة وشد

16- المصدر السابق، ص 24.

17- *BBC English Dictionary*, 1993, Harper Collins Publishers, London,P.598.

الانتباه، إلى خلق التوتر الدلالي في النص عبر التضاد في الأشياء"[18]. وتاليا تفصيل الحديث في أبرز تشعبات مفارقة الموقف:

- **المفارقة الدرامية:**

المفارقة الدرامية هي ذلك التأثير الواقع في مجال السرد القصصي، وينتج هذا التأثير عن معرفة المتلقي بالظروف المحيطة بالشخصية القصصية أكثر من معرفته بالشخصية نفسها[19]. وتقتضي المفارقة الدرامية ـ أول ما تقتضي ـ التوتر في العمل القصصي، وهو الأمر الذي يجعلها متداخلةً بشكل أو بآخر مع مفارقة الأحداث[20]، مما يعني أن المفارقة الدرامية ترافق العمل القصصي أو الدرامي في خطوطه العريضة ومراحله المختلفة وفكرته الكلية إذا كان متخذا من المفارقة أحد أساليبه الفنية، ووسائله في عرض المضمون، ومثل هذا يوصل الباحث إلى أن المفارقة الدرامية رافقت مراحل التوتر كلها في بنية الحكاية لـ: **كتاب النمر والثعلب**.

وقد بدأ التمهيد لهذه المفارقة عندما نصح الثعلب الذئب بأن يذهب إلى النمر ويطلب منه أن يمنحه ولايةً على ناحية من نواحي الجزيرة:

"قال الثعلب: إيت النمر فسله أن يوليك ولاية ترد عليك نفعا، وتؤدي لك ذكرا، وتكسبك حمدا.

قال الذئب: فأين ما أخبرتك على بخله وشراسة خلقه؟ وإنه لكما قال القائل: سواء هو والعدم"[21].

بهذا المعنى تكون المفارقة الدرامية هي التي تربط حلقات التوتر في العمل القصصي ببعضها؛ ذلك أن الثعلب ينصح الذئب بأن يطلب الخير من نمر شرس وبخيل، ويتوقع في الوقت نفسه أن يستأمن النمر ذئبا غدارا على ناحية من نواحي مملكته ويوليه إياها. يا لها من مفارقة تلد مفارقات تستمر في الصعود حتى تصل إلى نهايات مأساوية!

وقد بدأت المفارقة الدرامية بالتصاعد عندما ذهب الذئب ـ بالفعل ـ إلى النمر طالبا منه الولاية، وهنا حدث تداخل بين المفارقة الدرامية ومفارقات لفظية تمثلت بالصفات التي أسبغها الذئب على النمر وهو يعلم أنه لا يستحقها. على أن المفارقة الدرامية قد بلغت ذروتها في اللحظة التي بدت فيها نذر الحرب

18- ينظر: أسامة عبد العزيز جاب الله، **جماليات المفارقة النصية**، ديوان العرب (موقع على شبكة الإنترنت)، الأربعاء 30 تشرين الثاني (نوفمبر) 2011: http://www.diwanalarab.com/spip.php?article13621

19- Richard Nordquist, *About.com Guide*, http://grammar.about.com/od/il/g/ironyterm.htm

20- ينظر: خالد سليمان، **المفارقة والأدب**، ص 26.

21- سهل بن هارون، **كتاب النمر والثعلب**، ص 14.

بين الطرفين "الذئب والنمر" تلوح في الأفق، وهي النذر التي ستنقل هذه الدراسة إلى ما يسمى بمفارقة الورطة، حيث يعد د. سي. ميويك "مفارقة الورطة، قسما من أقسام مفارقة الموقف"[22]. وهو النهج الذي تتبعه هذه الدراسة.

- **مفارقة الورطة:**

لم تنج شخصية من الشخصيات الرئيسية في **كتاب النمر والثعلب** من الوقوع في مفارقة الورطة، فالذئب والنمر متورطان كطرفين يستعدان للحرب، ثم يسيران إلى ساحة المعركة التي يتوجسان من خوضها، أما الثعلب فيعيش مفارقة الورطة كمستشار للذئب يتوجب عليه تقديم النصيحة المناسبة في الوقت المناسب، على الرغم من إحساسه بأن الذئب يمثل الحلقة الأضعف في هذا الصراع، فانتصار الذئب في معركتين لا يعني أن يظل النصر حليفه إلى الأبد، ذلك أنه ـ في حقيقة الأمر ـ مجرد تابع تمرد على سيده، وقد سبق له أن أذل نفسه أمام النمر من أجل الوصول إلى الولاية التي خان عهدها واستأثر بها.

أما عن بداية مفارقة الورطة بين الذئب والنمر، فقد جاءت مع إظهار الذئب صراحةً ـ في إحدى رسائله ـ خروجه على النمر، ورفضه طاعته، واستعداده للمواجهة، مما اضطر النمر أن يجمع مستشاريه الذين تراوحت آراؤهم بين الكتابة للذئب من جديد، والصفح عنه، ومواجهته. وعلى الرغم من أن النمر أخذ بالخيار الأول وهو الكتابة إلى الذئب من جديد، فإن مفارقة الورطة ازدادت تصاعدا عندما أتى رد الذئب واصفًا النمر بالضعف، ومقررًا الاستعداد للمواجهة: "أيها النمر، فإننا لن تحمل أبداننا ذل سلطانك علينا، ولن نظلم أنفسنا بحكمك فينا، وليس لك عندنا إلا حد السيوف، وملاحم الزحوف، ومطاولة الأبطال، ومنازلة الأقران..."[23].

وتواصل مفارقة الورطة صعودها، فيخرج الذئب ـ من المعركة الأولى ـ منتصرا، وذلك حين يتمكن من قتل "الوثاب بن المنتهش" الموصوف ببأسه وقوته في الحروب، وهو الأمر الذي أدخل النمر في مأزق حقيقي.

هكذا تصبح مفارقة الورطة بمثابة سلسلة متتالية الحلقات، فالنمر الذي يرسل مقاتلا آخر هو "خداش بن عضاض"، واصفا إياه بأنه: "متزر بالحزم، ومتيقظ بالعزم، يقدمه النصر، ويتبعه الظفر،

22- ميويك، د. سي، **المفارقة وصفاتها**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، دار المأمون، بغداد، 1988م، ص 72.

23- سهل بن هارون، **كتاب النمر والثعلب**، ص 32.

لا يبقي ولا يذر..."[24]، يفاجأ بأن مقاتلا بهذه الصفات قد وقع صريعا بين يدي الذئب الذي انتصر في المعركة الثانية. وبذلك تكون مفارقة الورطة قد وصلت درجة عالية، وهو الأمر الذي يدفع النمر "المظفر ابن منصور" إلى التفكير الجاد بأن يخرج بنفسه على رأس جيش كبير لملاقاة الذئب "مكابر".

وبعد سماع النمر لآراء مستشاريه تكون مفارقة الورطة قد وصلت إلى مداها الأبعد والأخطر، فقد أخذ النمر برأي المستشار الذي نصحه بمواجهة الذئب. وفي ذلك تقول القصة: "ونهض النمر إلى الذئب في عدده وعتاده وأنصاره وقواده، وبلغ الخبر الذئب فملئ رعباً، وفزع إلى الثعلب، فقال: يا أبا الصباح قد بلغك هذا الخطب الفادح، واحتجت إلى رأيك فأشر به، فلمثل هذا كنت أحسيك الحسى"[25].

وفي هذه اللحظة الحرجة من حياة الذئب، يبدأ الثعلب بتذكيره بأنه حذره مرارا وتكرارا، ولكنه لم يلتفت لتحذيراته، ثم ينصحه بالهرب قائلا له: "إن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض فتدخل فيه، أو سلما في السماء فتصعد إليه فافعل"[26]. مثل هذه النصيحة الجارحة جعلت الذئب يدرك عظم ورطته، واقتراب أجله، فعزم على الهرب، غير أنه يأتي من بين مستشاريه من يسفه رأي الثعلب، وينصحه بالظهور للحرب، "فأخذ الذئب برأيه، واطرح رأي الثعلب، وظهر للحرب، فلما دنا للقتال كمن له النمر كمينا حتى إذا التقوا بالسلاح، ووقعت في الفريقين الجراح، خرج الكمين على الذئاب من ورائها، ومال النمر عليها فكان مكابر أول مقتول، واستلجم النمر عسكره، واحتوى عليه، وأسر كل ذئب فيه، وأخذ الثعلب أسيرا، وأمر بضرب أعناقهم وأكل لحومهم، حتى إذا وصل السيف إلى الثعلب صاح بأعلى صوته: عندي نصيحة للملك"[27].

وتخبرنا القصة أن النمر قرر سماع النصيحة، وعفا عن الثعلب، وهنا تكون مفارقة الورطة قد بدأت بالتراجع، بل وتكاد تصل إلى نهايتها، إذ على الرغم من أن القصة قد استمرت لخمس وثلاثين صفحة ـ تقريبا ـ بعد هذا الموقف؛ فإن هذه الصفحات اتخذت منحىً فكريا، وراح النمر ووزراؤه يحاورون الثعلب حول أمور من مثل العقل واللسان، والإنسان وحاله ونقصانه وكماله.

24- المصدر السابق، ص 36.

25- المصدر السابق، ص 41.

26- ينظر: أسامة عبد العزيز جاب الله، **جماليات المفارقة النصية**، ديوان العرب (موقع على شبكة الإنترنت)، الأربعاء 30 تشرين الثاني (نوفمبر) 2011: http://www.diwanalarab.com/spip.php?article13621

27- سهل بن هارون، **كتاب النمر والثعلب**، ص 42.

- **مفارقة خداع النفس:**

تتصل مفارقة خداع النفس اتصالا وثيقا بالمفارقات السابقة، وقد تمثلت هذه المفارقة أول ما تمثلت بشخصية الذئب، الذي كان يعرف ـ في قرارة نفسه ـ أنه لا طاقة له بحرب النمر المظفر بن منصور، إذ على الرغم من أن الذئب قد انتصر في معركتين متتاليتين، فإنه كان متشككا قبل بداية كل معركة منهما بقدرته على إلحاق الهزيمة بخصمه، غير أن أوضح شكل لمفارقة خداع النفس ظهر حين قرر الذئب مواجهة النمر المظفر بن منصور، وصم أذنيه عن نصيحة الثعلب بأن لا يقدم على هذه اللعبة الخطرة.

ولم يكن النمر نفسه ببعيد عن مفارقة خداع النفس، فهو يعلم أن الغدر من طبع الذئاب، ومع ذلك فقد منح الذئب الولاية على ناحية من نواحي مملكته، بعد أن خدع نفسه وأقنعها بأن هذا الذئب سوف يكون صادقا معه ويأتيه بالغنائم في موعدها وبالكمية المتفق عليها.

والمفارقة اللافتة في هذا الصدد، أن الثعلب نفسه ـ الذي نصح الذئب بعدم الوقوع في خداع النفس ـ كان قد وقع في وقت ما في منزلق "مفارقة خداع النفس"، إذ إنه كان مقتنعا بالنصيحة التي قدمها له صديقه طارق المكنى بأبي المغلس، بالخروج من الوادي بأسرع وقت ممكن، وإلا فإن السيل سوف يجرفه مع زوجته؛ لأن نذر السيل كانت تلوح في الأفق كحقيقة قادمة، وليست مجرد توقعات، وعلى الرغم من ذلك فإنه قد خدع نفسه بإقناعها بأن السيل قد لا يأتي، ثم انصاع لرأي زوجته، ذلك الرأي الذي أوصله إلى الكارثة، فأودى السيل بحياة زوجته، وكاد أن يودي به أيضا لولا أن الصدفة أنقذته. إن هذا الأمر يعني ـ فيما يعنيه ـ أن مفارقة خداع النفس تقع للإنسان مع إدراكه الواعي لها.

هكذا يكون مصطلح "المفارقة" من المصطلحات الغنية، ويكون مصطلحا متعدد الجوانب والاستخدامات، ولعل ثراء هذا المصطلح وانفتاحه على التأويل، واستيعابه للإضافة يجعله بحاجة إلى مزيد من الدراسة والاستقصاء. وبذلك يكون سهل بن هارون قد قدم أحداث قصته عبر مفارقات فيها من البراعة والدقة والصنعة الفنية الشيء الكثير، ولعل جملة القول تتمثل في مقولة عبد القاهر الجرجاني: "إن شككت فتأمل!"[28].

الخاتمة:

بما أن هذه الدراسة قد وصلت إلى خاتمتها، فإنها بلا شك قد وصلت إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها على النحو التالي:

28- عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م، ص 37.

أولًا: تتميز القصة في **كتاب النمر والثعلب** لسهل بن هارون بطولها النسبي، حيث تقع في مائة صفحة وصفحتين، مما يجعلها أقرب ما تكون إلى ما يسمى اليوم بالرواية، فإذا كان الجنس الأدبي لكتاب **كليلة ودمنة** الذي ترجمه ابن المقفع أقرب ما يكون إلى ما يسمى اليوم بالقصص القصيرة، فإن **كتاب النمر والثعلب** يختلف إلى حد ما، إذ إن المادة الإبداعية في هذا الكتاب صنعها خيال المؤلف نفسه.

ثانيا: تتميز القصة باعتمادها على الحوار، وقدرتها على الاستجابة للمفاهيم النقدية الحديثة من مفارقة وغيرها، حيث استخدم المؤلف تقنيات روائية ما زال يستخدمها الروائيون إلى يومنا هذا، ومنها تقنية الرسائل، وعنصر التشويق الذي يدفع القارئ للبحث عن مصائر الشخوص، وما ستؤول إليه الأحداث.

ثالثا: يعد **كتاب النمر والثعلب** نصا أدبيا غنيا بالمفارقات، خاصة ما تعلق منها بمفارقة الموقف بتشعباتها المختلفة، مثل: المفارقة الدرامية، ومفارقة خداع النفس، ومفارقة الورطة. وهو غني كذلك بالمفارقات اللفظية.

رابعا: وقع الكاتب في مزلقين فنيين يسهل على الدارس ملاحظتهما، وهما، أولًا: التنقل السريع بين الأحداث والأماكن دون تمهيد للقارئ في أحيان كثيرة، وثانيا: الحوار الفلسفي والفكري الطويل في الجزء الأخير من الكتاب، فقد جاء هذا الحوار طويلا للدرجة التي قد تنقل المتلقي من سياق القصة إلى سياق فكري وفلسفي طغى على العنصر الفني للقص.

The Irony in *The Tiger and Fox Book* by Sahl B. Hārūn: An Applied Study

The purpose of this study is to show the element of irony in *The Tiger and Fox Book* by Sahl b. Hārūn (d.215AH/830AD). It also talks about the origins of story in old Arabian life, which reveals that the old Arabic recitative text has the ability to respond to modern concepts of criticism and its applications.

Moreover, this study illustrates that *The Tiger and Fox Book* by Sahl b. Hārūn is one of the significant recitative works, that have been known in the early Abbasid era. The methodology of this study draws on an applied analytical approach for assessing the wide literary influence of this literary genre represented by Sahl b. Hārūn work.

****